﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يامحمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقا أوقلوبا؟ إنك يامحمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتى بالاختيار . فلوشئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف. بدليل أنه لاتكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هى العقل . وكذلك لاتكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوى السليم . ويمنع عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتى التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لاتكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ

عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التى حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعلها سبحانه ختماً لاتصال السماء بالأرض ؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أقضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أميناً عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية . التى شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكماً من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره ؛ فرب مُبلَّغ أوعى من سامع . حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

وخذ بعلمى ولا تركن إلى عملى
واجن الثمار وخلّ العود للنار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضرورى ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . ويبقى أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير فى البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين . ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعى يد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائما للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس . واتباع منهج الدين ـ كما يقولون ـ يحقق نفعا آجلا . وفى هذا القول ظلم للدين ؛ لأن الدين قبل أن يحقق للناس متعة آجلة ، فهو يحقق ـ أيضا ـ المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله فى « افعل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لاحقد فيها ، ولا استغلال ، ولا ضغن ولاحسد ولاسيطرة ، ولاجبروت ، فيصبح الناس جميعا فى أمان .

إذن فلاتقولوا إن الدين ثمرته فى الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب بل مهمة الدين هى الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازى فى الآخرة من أحسن العمل فى الدنيا . ومن اتبع منهج الله كما قال الله « فلنحيينه حياة طيبة » ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضنكا . ويحدث ذلك قبل الآخرة، ثم يأتى يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(سورة طه)

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالى ، فتكون مهمة الداعى شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا ؛ لأنه يريد أن يخلع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعى ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لابد أن يثير حنانهم ورغبتهم فى اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

لقد قال الحكماء : النصح ثقيل فلا نرسله جبلاً ولا نجعله جدلاً ، والحقائق مُرّة، فاستعيروا لها خفة البيان . والخفة فى النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحبّ . إلى ما لم يتعود ، فلا يكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أنداداً ؛ أى جعلوا الله ومعه شركاء .

إنهم إذن أرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء؛ لأنه قد تأتى لهم ظروف عصيبة ، لا تقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لا يكذبون أنفسهم. والحق سبحانه هو القائل فى مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التى كانوا يعبدونها وستكون وقوداً للنار التى يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هى غيرة ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله فى توحيد الله . فتقول الأحجار : لقد كنتم مفتونين بى ولذلك سأكون أداة إحراقكم . إننا نجد المفتونين فى الآلهة من البشر أو الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أو الآلهة من الأحجار يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التى عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعراً :

عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين فى الأسحار
واتخذوا صمتنا علينا دليلا وغدونا لهم وقود النار

للمغالى جزاؤه والمغالى فيه   تنجيه رحمة الغفار

ولذلك يأتى الأمر بألا نسبّ ما يعبده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لاذنب لها ، والواقع كان يقتضى أن تتلطفوا بالأحجار فهى لاذنب لها فى المفتونين بها . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نظلم المتّخَذ إلها؛ لأنه معذور ، والسب هو ذكر القبيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ماعبدوه من دون الله فإن العابد لها بغباوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا ، وهم سبّوا الإله الحق ، وبذلك لم نكسب شيئا ؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع فى ذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وهم سيفعلون ذلك عَدْواً وعدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الحق وقدسيته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لانجرىء الألسنة التى لاتؤمن بالله على سب الله .

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف فى منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الايمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذورون فى حماسهم حين يدخلون فى مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهى الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير فى منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحا عليه السلام الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما . وظل يدعو ويتحنن فى الدعوة ، إلى أن قالوا له فى آخر المطاف : أنت تفترى هذا الكلام من عندك ، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة هود)

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أى من الذى يعطيكم قوام الحياة ؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه. فيتلجلجون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم :

﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

و « إنا » أى رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال : منهجنا ومنهجكم لا يتفقان ، ولابد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول مَن هو الذى على هدى ، ومَنْ هو الذى على ضلال ؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جواباً إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوها .

ولنتأمل أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾

(سورة سبأ)

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين . وعلى الأقل كانت المساواة تقتضى ولا نسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب

العالى والـلطف ؛ لأن الحق سبحـانه وتعالى يريد ألا يـترك الرسول لغـرائزهم مكاناً للإباء عليـه ، وألا يجدوا وسيلة لينفـروا من الدعوة . ولهـذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهى أيضاً مخلوقة لله وهى تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليهـا ، ولا لهم أيد يبطشون بها، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها . وفوق ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهل هناك ما هو أقل من الذباب فى عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

فإن جـاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسـترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جبـاراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منهـا الطعام الذى أخذته ، لن تستطيع ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهذا هو الجدل الذى يجعل المجادل يخجل من نفسه ، لكن إذا ثرت فى وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً فى الحفيظة عليك والغضب منك والهجوم عليك ، وفى الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناة على الجدل اللطيف .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة فى ذاتها جميلة ؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولايحسن عرضها ؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة ، لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أى تصعيد الحسن ، ولذلك سُمِّى الحلى وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تمتلك أنوثة جميلة ، وهى مع جمالها تقوم بتزيين نفسها بالحلى ، وبالجواهر والملبس الراقى ، وكان العربى حين يمتدح امرأة بقمة جمالية يقول : هذه غانية ، أى استغنت بجمالها عن أن تتزين ؛ لأن ما سوف تداريه بالعقد أجمل من العقد .

والتزيين إذن جمال العرض للاستمالة والانجذاب ، ونحن حين نزين أمراً فإننا نعطيه وقاراً وحسناً ونزيده جمالاً : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) والأمة : هى الجماعة التى لها انتماء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب ..أى أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أى أن المنتمين إليها إنجليز . أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهى أوسع رقعة ، فإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصراً محدوداً وزمناً محدوداً ،ومكاناً محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أذواق الدنيا؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلابد أن يكون فى دعوتكم استمالة لهذا ولهذا ولهذا .

وفى بدء الدعوة ـ وكانت حينئذ ضعيفة نجد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشى هو من يؤذن ، ونجده يقول عن ـ سلمان وهو فارسى ـ : سلمان منا آل البيت[1] ويأتى سيدنا عمر يقول عن صهيب ـ وهو رومى ـ: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أى أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولا بد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

أى أننا وضحنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال المحسن والمطيع من ثواب فى الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرفون إلى لقاء المنعم به ، ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يربى الدعاة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما فى منهجكم من زينة لبحثوا فى هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ، ولانضم إلى المنهج التعبدى .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك.

و« ليعبدون » تعني أن يطيعوا في « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » وإذا قال الحق: « كذلك زينا لكل أمة عملهم » فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده .

وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عليك بموهبة إنما أراده الحق على هذا التميز لينفعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر في كل المهن : فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته عليك ، ومصمم الملابس الذي يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون غيره متفوقاً ؛ وأن يكون هو أيضاً متفوقاً في عمله ، وأن يحمد ربنا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً ، وبذلك نحيا في مجتمع راق يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمتفوق في شيء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع ؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصير الكل إلى التفوق .

فإذا قال الله : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » أي جعل الله لكل منا عملاً في الحياة ، ولا بد أن ينتفع به في الدنيا ، وينتفع به في الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فالذي يأخذ التزيين يقبل على العمل ، والذي لا يأخذ التزيين فعليه الذنب ، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذي يطلبه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك في الحياة ، ونلتفت لنجد إنساناً له دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة ، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومتع الحياة . إن الأول زين له عمله الترف العاجل ، والثاني زين له عمله الترف المقنن ، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى التي تأتي منها .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وما دام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً في « افعل » و « لا تفعل » والمرجع لمن وضع التزيين في العمل لتأخذ المنهج الكريم منه ، وعلى مقدار

ما أخذت من منهجه تأخذ من كرامته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« وأقسموا بالله » ، هنا قَسَمٌ : ومُقْسَمٌ به ، ومُقْسِمٌ ، ومقْسَمٌ عليه.. فالمقْسَمُ به هو الله : والمقسِم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حين أخذهم الجدل بمنطق الحق فغلبهم .. هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، و« جهد أيمانهم » تعرف منها الجهد وهو المشقة أى أنهم بالغوا فى القسم مبالغة تجهدهم ليبينوا لمن يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسَم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسِمون قسما محبوبا لهم ، والمحبوب لهم أكثر أن ينفذوا هذا القسم ،وهذا يدل فى ظاهره على إخلاصهم فى القسم .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة الأنعام)

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة ؟ لقد جاءهم بأعظم آية وهى القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم : إنى رسول بعد أن أعلن الآية وهى نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق فى التبليغ عن الله . وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾

(سورة الإسراء)

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذى أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا: « كما زعمت علينا » والزعم ـ كما نعلم ـ مطية الكذب وهذا أول خلل فى القسم .

ويقول الحق :

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٩ سورة سبأ)

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصيلة وهى القرآن ، فيتحدونه فى أنه ينزل بالوحى ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾

(سورة الأنعام)

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾

(سورة الحجر)

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحركم. . فلماذا لم يسحرهم ليؤمنوا بالله ؟

وهكذا نرى أن الحق قد ذكر لنا فى كتابه أن كل ما يقولونه فى هذه

المسألة هو مـزوق وهروب من الاستجابة للدعـوة ؛ لأنه لا توجد آية أعظم من الآية التى نزلت عليهم وهى القـرآن ، وكل الآيات التى اقتـرحـوها لا تسمـو على هذه الآية ؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فـجاء لهم بالمعجزة التى تفوقوا فيهـا . وهم لم يتفوقوا فى الأشيـاء التى ذكروها واقترحوها . إننـا نأتى لهم بمعجزة من جنس ما تفـوقوا فيه ؛ لأن المعـجزات دائماً تأتى على هذا الأسـاس ؛ فكل قوم تفوقـوا فى مجال يأتى الله لهم بشىء يتـفوق عليهم فى مجـال تفوقهم ليثـبت صدق الرسول فى البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجـزات تأتى خرقاً لنواميس الكون الثـابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم ؛ فإذا ما جاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلتفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذى خلق الناموس هو الذى خرق النامـوس ؛ لكى يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جـاءتكم المعجـزة من جنس ما نبـغتم فيـه ، والذى يدل على ذلك أنهم لا يتكلمـون فـى المعـجـزة بل فى المنهج وفى شـخص من جـاء بـالمنهج ، تجـدهم يقولون :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة الأنعام)

فـيـوضح القـرآن أن الملك بـطبـيـعـة تكوينه لا يُرى منكم ؛ هـو يراكم وأنتم لا ترونه، وإذا أرسلنا ملكاً فكيف تعرفونه ؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وأن ينزله الحق فى صورة بشر ، وإن نزل فى صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشراً ولسنا ملزمين بما جاء به :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾

(سورة الأنعام)

وكـان سيـدنا جبريل ـ عـلـى سبيل المثـال ـ ينزل إلى رسول الله أحـياناً فى صـورة رجـل قـادم مـن السفر ويقـعـد ويتـكلم مـع سـيـدنا رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ، لـم يأت جـبـريل عليـه السـلام ـ إذن ـ بطبـيـعـة تـكوينه بل جـاء

بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن . ونحن لانقدر أن نرى الجن ، ولانستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إن أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادى يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولوكانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين ـ الإنس والجن ـ لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفى يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أى شكل مادى ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس ـ مثلا ـ فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كومضة البرق ويختفى ؛ لأنه يخاف كما قلنا ـ من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع علىّ الصلاة وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخى سليمان : « رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » فردَّه الله خاسئا ، وفى رواية : « والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة »[1] .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولايؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

(١) رواه مسلم واللفظ له فى الصلاة فى كتاب المساجد ، ورواه البخارى فى الصلاة ، ورواه أحمد ومعنى (يفتك) : يأخذ فى غفلة وخديعة وفى رواية (تفلّت) ومعنى (فذعته) بذال معجمة وتخفيف العين المهملة أى خنقته وفى رواية أخرى (فدعته) بالدال المهملة أى دفعته دفعاً شديداً ومعنى (سارية) إسطوانة

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لاآتى بالآيات من عندى ولاآتى بها بقانون قدرتى ؛ لأن قانون قدرتى مساوٍ لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحى إلىّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إنّ الله هو الذى يناولنى آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ماسبق فى الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أويرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتى الآية كما يريدها الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : « قل إنما الآيات عند الله » ثم يأتى خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم: « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنتهم مع رسول الله فقالوا له : يارسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون وظنكم حسن ، وفكرتكم طيبة فى أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن مايشعركم : أى مايعلمكم أن الآية التى اقترحوها إن جئت بها لايؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين فى طلب الآية منعا للجاج .

والنص القرآنى جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذى يجعل الأسلوب يجىء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش فى القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أى أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذى يتكلم هو الإله وليس فى كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ؛ لأن لله مرادات فى كلامه ، وهذه المرادات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال فى حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندى مال » أو ما عندى من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أى ما عندى من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندى مال » أى ليس عنده ما يعتد به من المال الذى له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن فى جيبه القليل من القروش .

و « لا » فى هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أننى إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم فى التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا فى الكفار ، بل حبا فى النبى والمنهج ، وكأن الحق يقول لهم : أنا أعذركم لأنكم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أننى إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعني أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفي وعظيم خبرتي أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمي هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أي أن يكون التقليب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا فى هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت اية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أيظل أمره كذلك أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أي أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان فى فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هي رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرةمنهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفى هذا عذر للمؤمنين فى أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .